Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

من هدي القرآن الكريم

فضيلة العارف باللّه

حسين محمود معوض

من علماء الأزهر الشريف

1407هـ - 1987م

مَوْقِع الطريقة الدُومِيَّة الخَلْوَتِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة

القرآن هُدىً، وبين ثناياه الشفاء، وإن العامل به أو بآية من آياته سائر على الصراط المستقيم، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وهذه الليلة المباركة هي ليلة القدر والتي يقول الله سبحانه فيها ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ نزل على رسول الله ﷺ في سنين معدودة وكما ورد فقد جاءه الحق وهو في غراء حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ فقال: ما أنا بقارئ... قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ... قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾،

Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

وكان نزول هذه الآيات بداية نور من السماء يشرق على الأرض ومن فيها وصدق الله فيما قال ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، والقرآن كتاب الله الذي ضمن الله حفظه دون غيره من الكتب السابقة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، كما أنه مميز عنها أيضاً بنسبته إلى الله تعالى لا لمن نزل عليه وهو أيضاً مصدق لما جاء في الكتب السابقة وجاء بما تميز به وحده ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ . . .، وإنني حين أقدم للأخوة المسلمين ما تناولته الآيتان ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ من معان جامعة إذا أخذ الإنسان بها نفسه فقد استجمع لنفسه السعادة الكاملة إذ أقدم ذلك أرجو من الله أن ينفع كل ناظر فيه كما أرجو من الله القبول والتوفيق، كذلك ما تناولته سورة الفاتحة والتي تجمع إجمالاً معاني القرآن الكريم، والمعوذات أيضاً، وما في هذه السور من الخير الوفير والعطاء المستفيض.

والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفقير إلى ربه

حسين محمود معوض

من علماء الأزهر الشريف

مَوْقِع الطريقة الدُومِيَّة الخَلْوَتِيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة الفاتحة

هذه السورة مكية، وقيل مدنية، والأصح أنها مكية ومدنية نزلت بمكة حين فرضت الصلاة ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة وآياتها سبع آيات باتفاق إلا أن من لم يعد البسملة آية منها اعتبر ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ..... آية و غَيْرِ المَغْضُوبِ﴾ إلى آخر السورة آية وكلماتها تسع وعشرون كلمة وحروفها (141) مائة وواحد وأربعون حرفاً، ولها أسماء كثيرة فتسمى أم القرآن للحديث قال عليه الصلاة والسلام (لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن) ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن وسورة الواقية والكافية لذلك، وسورة الكنز لقوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن

الله تعالى. (فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي) وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه الصلاة والسلام. (فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام)، وسورة المثاني لأنها تثنى في كل صلاة. وسورة الصلاة لما يروى. (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله حمدني عبدي.... إلخ) وسورة الحمد والأساس فأنها أساس القرآن، قال بن عباس رضي الله عنهما إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاءها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك للابتداء بها وهو مذهب أبي حنيفة ومن تابعه رحمهم الله ولذا لا يجوز الجهر بها عندهم في الصلاة، وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ولذا يجهرون بها في الصلاة، وقالوا قد أثبتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، وعن أبي عباس رضي الله عنهما من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله ولنا حديث أبي هريرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله تعالى: (قسمت الصلاة "أي الفاتحة" بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى حمدني على عبدي، وإذا قال ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى أثنى علي عبدي، وإذا قال ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال مجدني عبدي وإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، قال الابتداء بقوله الحمد لله دليل علي أن التسمية ليست من الفاتحة وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعا والحديث مذكور في صحاح المصابيح وما ذكروا لا يضرنا لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا، ذكره فخر الإسلام في المبسوط، وإنما يرد علينا لو لم نجعلها آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا.

وأجمع العلماء على أنها آية في سورة النمل، وتعلقت الباء بمحذوفٍ تقديره بسم الله اقرأ أو أتلوا لأن الذي يتلوا التسمية قارئ كما أنا المسافر إذا حل وارتحل فقال بسم الله والبركات، كان المعنى بسم الله أحلُّ وبسم الله أرتحل وكذا الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله بسم الله كان مضمراً ما جعلت التسمية مبدأ له ويكون المعنى باسم الله ابدأ متبركاً ففيه يُعلم عباده كيف يتبركون باسمه وكيف يعظمونه.

و﴿الله ﴾أصله الإله ونظيره الناس أصله الأناس والإله من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بالحق كما أن النجم أسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا وأما الله فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره وهو اسم غير صفة لأنك تصفه ولا تصف به لا تقول شيءٌ إله كما لا يقول شيءٌ رجل وتقول الله واحد صمد ولأن صفاته تعالى لا بد

لها من موصوف تجري عليه ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل والزَّجاج ومحمد بن الحسن والحسين بن الفضيل وقيل هو من قولهم أَلِه يألَهُ إلهاً بمعنى عبد فهو مصدر بمعنى مألوه أي معبود ولقوله ﴿هَـذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي مخلوقه، وتُفَخَّم لامُه إذا كان فتحة أو ضمة وترقق إذا كان قبلها كسرة ومنهم من يرققها بكل حال ومنهم من يفخم بكل حال والجمهور على الأول، و﴿الرَّحمَنِ﴾ فُعلان مِن رحِم وهو الذي وسعت رحمته كل شيء كغضبان من غضِب وهو الممتلئ غضباً وكذا ﴿الرَّحِيمِ﴾ فعيل منه،وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم لأن في الرحيم زيادة واحدة وفي الرحمن زيادتان وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى ولذا جاء في الدعاء: يا رحمن الدنيا، لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن ورحمة الله إنعامه على عباده وأصله العطف.

﴿ الْحَمْدُ ﴾الوصف بالجميل على جهة التفضيل وأصله النصب وقرأ باحتمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة بمعنى الإخبار كقولهم شكراً وكفراً والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر (لله) واللام متعلقة بمحذوف أي واجب أو ثابت وقيل الحمد والمدح أخوان وهو الثناء على الجميل من نعمة وغيرها تقول حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته وحسبه وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

أي القلب ،والحمد باللسان وحده وهو إحدى شعب الشكر ومنه الحديث "الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبداً لم يحمده".

(لله) أصله الأعلى لي إله كما في الصحاح، أو الإله كما في الكشاف، واختلفوا في الفرق بين الإله والله فقال السيد السند :هما علم لذاته، وقال العلامة السعد: إن الإله أسم لمفهوم كلي هو المعبود بحق والله علم لذاته تعالى ومن ثم فإنه سبحانه تجري صفاته على هذا الاسم فيقال الله الرحمن الله اللطيف الله الرزاق، كما أنه لم يسم به غيره سبحانه فلا يقال لأحد الله إلا لواجب الوجود تبارك وتعالى وهو اسم الله الأعظم الذي إذا سأل به أعطى وإذا دعي به أجاب.

أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولا يأذن في ذلك لغيره بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فقال ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ وقال عليه الصلاة والسلام:" أحثوا في وجه المداحين التراب". والمعنى سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمد الخلق لي مشوب بالعلل، قال علماؤنا فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك". وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما تثني وفوق الذي نثني

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره ما ذهب إليه أبو جعفر الطبري وأبو العباس والمبرد: من أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء ،قال: وليس بمرضي، وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب الحقائق له عن جعفر الصادق وابن عطاء، قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه.

وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالجوارح والقلب والحمد إنما يكون باللسان خاصة.

وقيل الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما :الحمد الله كلمة كل شاكر، وأن أدم عليه السلام قال حين عطس الحمد لله، وقال الله لنوح عليه السلام :﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال إبراهيم عليه السلام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وقال في قصة داود وسليمان ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال لنبيه ﷺ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وقال أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾. ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهي كلمة كل شاكر. انتهى

ويطلق الحمد ويراد منه الرضي، يقال بلوته فحمدته أي رضيت عنه، ومنه قوله تعالى :﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

ويذكر عن جعفر الصادق، أن من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد لأن الحمد حاءٌ وميمٌ ودالٌ، فالحاءُ من الوحدانية، والميمُ من الملك، والدالُ من الديمومة، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك، فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد الله.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، وفي الصحاح: الرب اسمٌ من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، والرب السيدُ وفي الحديث "أن تلد الأمةُ ربتَها" أي سيدتَها، والرب المصلح والمدبر والجابر والقائم قال الهروي وغيره يقال لمن قام بإصلاح شيئ وإتمامه ومنه سُمي الربانيون لقيامهم بالكتب، وفي الحديث :"هل لك من نعمة تربها عليه" أي تقوم بها وتصلحها، والرب المعبود ومنه قول الشاعر:

أربٌ يبول الثعلبانُ برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالبُ

قال بعض العلماء: "إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به وتأمل ذلك في القرآن كما في آخر سورة آل عمران وسورة إبراهيم وغيرهما، لما يُشعِر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال.

ومتى أُدخِلت الألف واللام على ﴿رَبِّ﴾ اختص الله تعالى به لأنها للعهد وإن حذفها منه سار مشتركاً بين الله وبين عباده فيقال الله رُب العباد، وزيدٌ رب الدابة، اللهُ سبحانه رب الأرباب ويملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه،

وكل ربٍ سواهُ غير خالق ولا رازق، وكل مملوك مملك بعد أن لم يكن ومُنتَزعٌ ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء، وصفة الله مخالفةٌ لهذه المعاني فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوق.

﴿العَالَمِينَ﴾ قال قتادة :العالَمون جمعُ عالَم وهو كل موجود سوى الله تعالى ولا واحد له من لفظه مثل رهط قوم وقيل :أهل كل زمان عالَم ،قاله الحسين ابن الفضيل لقوله تعالى ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ﴾ أى من الناس، وقال ابن عباس :العالمون الجن والأنس دليله قوله تعالى :﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ولم يكن نذيراً إلا للإنسِ والجنِ وقال الفراء وأبوعبيدة: العالم عبارة عمن يعقل وهم أربعة أمم الأنس، والجن ، والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم، وقال وهب ابن منبه :إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالمٌ منها، وقال أبو سعيد الخدري: إن لله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها إلى غربها عالمٌ واحد، وقال ابن عباس :كل ذي روح دب على الأرض، وقال مقاتل: العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البر وأربعون عالم في البحر، قال صاحب روح المعاني: والقول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ودليله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وصف نفسَه تعالى بعد ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ بأنه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾

ترهيب قوته بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته وأملع كما قال ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وقال :﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:" لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولم يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد". وقد تقدم ما في هذين الاسمين من المعاني.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه أربع لغات مالِك وملِك وملْك – ومَليك وروي عن نافع إشباعُ الكسرة في ملِك فيقرأ "مليكي" على لغة من يشبع الحركات وهي لغة للعرب ذكره المهدوي وغيره.

وقال اختلف العلماء أيهما أبلَغ: مَلِك أو مالك، فقيل مَلِك أعم وأبلغ من مالك إذا كل مَلِك مالك وليس كل مالك مَلِك، ولأن أمر المَلِك نافذ عن المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير المُلك قاله أبو عبيدة والمبرد، وقيل "مالك" أبلغ لأنه يكون مالك للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم إذ إليه إجراء قوانين الشرع ثم عنده زيادة التملك، وقال أبو حاتم: إن "مالكاً" أبلغ في مدح الخالق من مَلِك ومَلِك أبلغ في روح المخلوقين من مالك، والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير مالك وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملِكاً، واختار هذا القول القاضي أبو بكر العربي.

وقد احتج بعضهم على أن مالكاً أبلغُ بأن فيه زيادة حرفٍ فلقارئهِ عشرُ حسنات وزيادة عمن قرأ مَلِك ولأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولا يجوز أن يتسمى أحدٌ بهذا الاسم ولا يُدعى به إلا الله تعالى، روى البخاريُ ومسلمٌ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ "يقبض اللهُ الأرضَ يوم القيامة ويطوي السماءَ بيمنه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض".

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ "إن أخنع اسمٍ عند الله رجل تسمى ملك الملوك، زاد الإمام مسلم – لا مالك إلا الله عز وجل"، قال الإمام أحمد بن حنبل: سألت أبا عمر الشيباني عن أخنع فقال (أوضع)، وعنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل كان يسمى ملك الملوك ،لا ملك إلا الله سبحانه قال "ابن الحصار وكذلك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ومالك الملك، لا ينبغي أن يختلف في أن هذا مُحرم على جميع المخلوقين، وإنما خُصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره لأن الدنيا كانوا منازعين في الملك مثل فرعون ونمروذ وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه وكلهم خضعوا له كما قال تعالى ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فأجاب جميع الخلق ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وإذا وصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته، وإن وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله.

واليوم وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرا أهل الدارين فيهما وقد يطلق اليوم على الساعة منه قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

﴿الدِّينِ﴾ الجزاء على الأعمال والحساب بها كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جرير وقتادة وغيرهم، وروي عن النبي ﷺ، يدل عليه قول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي حسابهم وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقال :﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيون.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين، لأن من أول السورة إلى هاهنا خبراً عن الله تعالى وثناءً كقوله :﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.

ثم قال :﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ وعكسه ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

﴿نَعْبُدُ﴾ معناه نطيع، والعبادة الطاعة والتذلل، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين، قال الهروي: ونطلق المكلف به إقراراً بالربوبية، وتحقيق لعبادة الله تعالى، إذ سائر الناس يعبدون سواء من أصنام وغير ذلك.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نطلب العون والتأييد والتوفيق إذا لا يوفق العبد ويعينه على ذلك إلا أنت، قيل من أقر بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقد برئ مما يقوله الجبرية والقدرية وهما مذهبان فاسدان في علم التوحيد.

وإنما قدم المفعول على الفعل لإفادة الاختصاص وفي ذلك مزيد اهتمام، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ولا نعبد إياك ونستعين إياك.

والجمهور من القراء والعلماء على شد الياء في إياك في الموضعين وقرأ عمرو ابن فائد إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطف جملة على جمله وقرأ يحيى ابن وناب والأعمش نِستعين بكسر النون وهي لغة تميم وأسد وقيس وربيعه.

إذا لم يكن عون من الله فأول ما يقضي عليه اجتهاده

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب والمعنى دلنا على الصراط المستقيم وأرشِدنا إليه، وأرِنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك، قال بعض العلماء فجعل الله جل وعز عِظم الدعاء وجملته موضوعاً في هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به (الداعي) لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعوا بدعاء هو كلامه الذي تكلم به وفي الحديث :"ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء"، وقيل المعنى أرشِدنا باستعمال السنن في أداء فرائضك، وقيل: الأصل فيه الإمالة ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي ملنا فالمعنى مل بقلوبنا إلى الحق الذي علمت في الأزل أنه الحق عندك، وقال الفضيل ابن عياض :﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الحج وهذا خاص والعموم أولى، وقال محمد بن الحنفية هو دين الله الذي لا يقبل من العباد

غيره، وقال عاصم الأحول عن أبي العالية :﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده قال عاصم فقلت للحسن: إن أبا العالية يقول ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ رسول الله ﷺ وصاحباه، قال صدق ونصح.

وأصل الصراط في كلام العرب الطريق، قال الشاعر:

أمير المؤمنين على الصراط إذا إعوج الموارد مستقيم

وقرئ: السراط (بالسين) من الاسترواط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يسترط من يسلكه وقرأ بين الزاي والصاد، وقرأ بزاي خالصة، والسين الأصل، وحكى سلمة عن الفراء قال: الزراط، بإخلاص الزاي لغة لعذرة وكلب وبني القين قال وهؤلاء يقولون :(في أصدق) أزدق، و﴿الصِّرَاطَ﴾ نصب على المفعول الثاني ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ صراط بدل من الأول ،بدل كل من كل، كقولك جاءني زيد أبوك ومعناه أدم هدايتنا، فإن الإنسان قد يهدي إلى الطريق ثم يقطع به، وقيل هو صراط آخر ومعناه العلم بالله جل وعز والفهم عنه، قال جعفر بن محمد :وفي عليهم عشر لغات قرئ (**عليهُم**) بضم الهاء وإسكان الميم وعليهم بكسر الهاء وإسكان الميم وعليهمي بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسر... الخ. وكل القراءات العشر صواب. قال ابن الأنباري: قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضي الله عنهما "صراط من أنعمت عليهم" واختلف الناس في المنعم عليه فقال الجمهور من المفسرين إنه أراد صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وانتزعوا ذلك من قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ

﴿أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾.فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم وهو المطلوب في آية الحمد وجميع ما قيل إلى هذا يرجع فلا معنى لتعديل الأقوال.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ﴾ اختُلِفَ فيه ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿وَلاَ الضَّآلِّينَ﴾ من هم ،فالجمهور على أن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود و﴿الضَّآلِّينَ﴾ النصارى ،وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه أخرجه أبو داود والطيالسي في مسنده والترمذي في جامعه ومشهد لهذا التفسير أيضاً قوله سبحانه في اليهود ﴿ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وقيل:﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ المشركون و ﴿الضَّآلِّينَ﴾ المنافقون وقيل: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هو من أسقط فرض هذه السورة في الصلاة و ﴿الضَّآلِّينَ﴾ عن بركة قراءتها حكاه السلمي في حقائقه والماوردي في تفسيره وليس بشيء ،قال الماوردي: وهذا وجهٌ مردود لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم.

وقيل ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باتباع البدع و ﴿الضَّآلِّينَ﴾ عن سنن الهدى وهذا حسن وتفسير النبي ﷺ أولى وأعلى وأحسن والغضب في اللغة الشدة ورجل غضوب أي شديد الخلق ،ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة العقوبة ،فهو صفة ذات، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته أو نفسه العقوبة، ومنه الحديث (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب)، فهي صفة فعل.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال في لغة العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ومنه ضل اللبن في الماء أي غاب ومنه ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي غبنا بالموت وصرنا ترابا. قرأ عمر بن الخطاب وأبي ابن كعب ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وروي عنهما في الراء النصف والخفض في الحرفين. ولا في ﴿الضَّالِّينَ﴾ فقيل أنها زائدة قال الطبري وقيل هي تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على اللذين، حكاه مكي والمهدوي وقال الكوفيون (لا) بمعنى غير وهي قراءة عمر وأبي وقد تقدم وقرأ أيوب السختياني ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بهمزة غير ممدودة فأنه قد من التقاء الساكنين وهي لغه، حكى أبو زيد قال سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ فظننت أنه لقد لحن حتى سمعت من العرب دأبه وشأبه. وجاز أن يراد بالمغضوب عليهم وبالضالين كل من طرد عن حضرة الله ولو بخاطر يرد على قلبه وهذا حال الخواص من عباد الله كما قال بن الفارض.

ولو خطرت لي في سواك على خاطري يوماً حكمت بردتي

ويراد بالردة معناها الذي يتناسب مع حاله ﷺ لا الردة التي هي خروج عن ربقة الإسلام.

ولله الحمد والمنة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..؟

حسين محمود معوض

من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية 177 من سورة البقرة.

تفسير الآية:

العلماء في هذا الخطاب هل هو عام أو خاص، فمن قائل هو لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لما شددوا في الثبات على التوجه نحو بيت المقدس فقال الله تعالى ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن.

أوهو خطاب للمؤمنين لما ظنوا أنهم نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام.

أو هو خطاب للكل لأنه عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الغبطة والتشدد في آن واحد حتى ظنوا أنه الفرض الأكبر في الدين فيحثهم الله بهذا الخطاب على استيفاء جميع العبادات والطاعات وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم شرقاً وغرباً وإنما البر كيت وكيت، وهذا أشبه بالظاهر إذا لا تخصيص فيه. فكأنه تعالى قال ليس البر المطلوب هو أمر القبلة بل البر المطلوب هذه الخصال التي عدها.

قرأ ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ عاصم، و ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ الباقون، قال الواحدي وكلا القراءتين حسن. والاختيار رفعُ البرِ لأنه روي عن أبن مسعود أنه قال في قراءته لهذه الآية ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا﴾ والباء تدخل في خبر ليس.

والكلمة (البر) اسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى، ومن هذا بر الوالدين قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ فجعل البر ضد الفجور قال ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فجعل البر ضد الإثم فدل على أنه اسم جامع لجميع ما يؤجر عليه الإنسان وأصله من الاتساع ومنه البَر الذي هو خلاف البحر لاتساعه.

وفي نزول الآية أقوال :قيل أشير فيها إلى السفهاء الذين طعنوا في المسلمين وقالوا ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ مع أن اليهود كانوا يستقبلون المغرب والنصارى كانوا يستقبلون المشرق فقال الله: إن صفة البر لا تحصل بمجرد استقبال المشرق والمغرب بل البر لا يحصل إلا عند مجموع أمور.

أحدها: الإيمان بالله وأهل الكتاب أخلوا بذلك، أما اليهود فلقولهم بالتجسيم ولقولهم بأن عزير ابن الله وأما النصارى فلقولهم المسيح ابن الله، ولأن اليهود وصفوا الله بالبخل على ما حكى الله عنهم ذلك بقوله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وثانيها: الإيمان باليوم الآخر واليهود أخلوا بهذا الإيمان حيث قالوا كما حكي القرآن عنهم ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾. ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ والنصارى أنكروا الميعاد الجسماني وكل ذلك تكذيب باليوم الآخر.

وثالثها: الإيمان بالملائكة، واليهود أخلوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبريل عليه السلام، قال الله تعالى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ورابعها: الإيمان بكتب الله، واليهود والنصارى قد أخلوا بذلك لأن مع الدلالة على أن القرآن كتابٌ ردوه ولم يقبلوه وقال تعالى ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وخامسها: الإيمان بالنبيين، واليهود أخلوا بذلك حيث قتلوا الأنبياء قال تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وحيث طعنوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ.

وسادسها: بذل الأموال على وفق أمر الله سبحانه وتعالى، واليهود أخلوا بذلك لأنهم سلكوا الشبهات لطلب المال القليل كما قال تعالى ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

وسابعها: إقامة الصلوات والزكوات، واليهود كانوا يمعنون الناس منها.

وثامنها: الوفاء بالعهد واليهود نقدوا العهد حيث قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

وهنا سؤال وهو أنه تعالى نفى أن يكون التوجه إلى القبلة بِراً، ثم حكم بأن البِر مجموع أمور أحدها الصلاة ولا بد فيها من استقبال القبلة، فيلزم التناقض.

والجواب: أن نفي البِر نفي لكمال البر وليس نفياً لأصله كأنه قال ليس البر كله هو هذا فإن البر اسم لمجموع الخصال الحميدة واستقبال القبلة واحدً فيها فلا يكون ذلك تمام البِر أو أن يكون هذا نفياً لأصل كونه بِراً لأن استقبالهم للمشرق والمغرب كان خطأً في وقت النفي حينما نسخ الله تعالى ذلك بل كان ذلك أثماً وفجوراً لأنه عَمِل بمنسوخ قد نهى الله عنه وما يكون كذلك فأنه لا يعد في البِر.

وقال البعض أيضاً: إن استقبال القبلة لا يعد بِراً إذا لم يقاربه معرفة الله وإنما يكون براً إذاً، إذا أتى به مع الإيمان وسائر الشرائط كما أن السجدة لا تكون من أفعال البر، إلا إذا أتي بها مع الإيمان بالله ورسوله، أما إذا أتى بها بدون هذا الشرط فأنها لا تكون من أفعال البِر.

رويَ أنه لما حُولت القبلة كثر الخوض في نسخها، وصار كأنه لا يراعي بطاعة الله إلا الاستقبال فأنزل الله هذه الآية كأنه قال تعالى: ما هذا الخوض الشديد في أمر القبلة مع الإعراض عن كل أركان الدين.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ الكلام على حذف مضاف أي ولكن البر بر من آمن وهو كثير في القرآن كقوله ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي حب العجل أو البر بمعنى الباء كقوله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي للمتقين ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائرا، أو معناه ولكن ذا البر فحذف كقوله ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ذوي درجات.

قال الفخر الرازي: وأعلم أن الوجه الأول أقرب إلى مقصود الكلام، فيكون معناه ولكن البر الذي هو كل البر والذي يؤدي إلى الثواب العظيم بر من آمن بالله.

قال المبرد: لو كنت مما يقرأ القرآن بقراءته لقرأت ولكن البر. وقرأ نافع وابن عامر ولكن مخففه البر بالرفع، والباقون ولكن مشددة البر بالنصب وأعلم أن الله اعتبر في تحقيق ماهية البر أموراً (الأول) الإيمان بأمور خمسة:

الأول: الإيمان بالله ولن يحصل العلم بالله إلا عند العلم بذاته المخصوصة عن طريق ما خلق وأبدع لا في التفكر في الذات الأقدس جل وعلا إذا التفكر في ذات الله فسق ويتضمن هذه العلم معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه سبحانه، ولن يحصل العلم بهذه الأمور إلا عند العلم بالدلائل الدالة عليها فيدخل فيه العلم بحدوث العالم، والعلم بالأصول

التي عليها يتفرع حدوث العالم، ويدخل في العلم بما يجب له من الصفات العلم بوجوده وقدمه وبقاءه وكونه عالماً بكل المعلومات قادراً على كل الممكنات حياً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً، ويدخل في العلم بما يستحيل عليه العلم بكونه منزهاً عن الحالية والمحلية والتحيز والعرضية، ويدخل في العلم بما يجوز عليه اقتداره على الخلق والإيجاد وبعثة الرسول.

ثانيها: الإيمان باليوم الآخر وهذا الإيمان مفرع على الأول لأنه ما لم نعلم كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات وما لم نعلم قدرته على جميع الممكنات فلا يمكننا العلم بوقوع الحشر والنشر.

ثالثها: الإيمان بالملائكة، وهم أجسام نورانية ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ولا يعلم عددهم إلا الله ومنهم الحفظة وحملة العرش والملائكة الكروبيون.

رابعها: الإيمان بالكتب والمشهور فيها الكتب الأربعة، القرآن والتوارة والزبور والإنجيل، والعلم بأن القرآن تميز عن سائر الكتب فقد حوى كل ما في هذه الكتب كما ضمن الله حفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

خامسها: الإيمان بالرسل، وهم كثرة كثيرة وأفضلهم أولوا العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وقد روعي في الآية الكريمة ترتيب الوجود الخارجي، ولم يراع ترتيب الاعتبار الذهني ووجوداً فالملك يوجد أولاً ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرسول أما الترتيب الذهني فهو أن الذهن يلحظ رسولاً مبلغاً وذلك هو الأصل ثم عن طريق الرسل تعرف الملائكة والكتب.

وهنا سؤال لم خص الإيمان بهذا الأمور الخمسة، والجواب. إنما خصت لأنه يدخل تحتها كل ما يلزم أن يصدق به، فقد دخل تحت الإيمان بالله معرفته بتوحيده وعدله وحكمته، ودخل تحت اليوم الآخر المعرفة بما يلزم من أحكام الثواب والعقاب والمعاد إلى سائر ما يتصل بذلك، ويدخل تحت الملائكة ما يتصل بأدائهم الرسالة إلى النبي ﷺ ليؤديها إلينا إلى غير ذلك مما يجب أن يُعلم من أحوال الملائكة، ودخل تحت القرآن جميع ما أنزل الله على أنبياءه ودخل تحت النبيين الإيمان بنبوتهم وصحة شرائعهم فثبت أنه لم يبقى شئ مما يجب الإيمان به إلا دخل تحت هذه الآية.

وسؤال آخر: لما قدم الإيمان على أفعال الجوارح وهو إيتاء المال والصلاة والزكاة والجواب للتنبيه على أن أعمال القلوب أشرف عند الله من أعمال الجوارح والضمير في حبه يرجع إلى المال والتقدير وآتى المال على حب المال وقال ابن عباس وابن مسعود وهو أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ولا تُهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وهذا التأويل يدل على أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت والعقل يدل على ذلك أيضاً من وجوه.

أحدها: أن عند الصحة يحصل ظن الحاجة إلى المال، وعند قرب الموت يحصل ظن الاستغناء عنه، وبذل الشيء عند الحاجة إليه أدل على الطاعة من بذله عند الاستغناء عنه على ما قال ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وثانيها: إن إعطاءه حال الصحة أدل على كونه متيقناً بالوعد والوعيد من إعطاءه حال المرض والموت.

وثالثها: أن إعطاءه حال الصحة أشق فيكون أكبر ثواباً قياساً على ما يبذله الغنيّ حيث هو في سعة عما يبذله الفقير مع الجهد والفاقة فإنه بذلك يزيد ثوابه عن الغني.

ورابعها: أن وهب ماله لخوفه من ضياعه فإن هذه الهبة لا تكون مساوية لمن كان آمناً على ماله وإنما وهبه طائعاً مختاراً.

وخامسها: أنه مؤيد بقوله تعالى ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقوله ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب الطعام وعن أبي الدرداء ﷺ أنه ﷺ قال: (مثل الذي يَصّدق عند الموت مثل الذي يهدي بعدما شبع).

القول الثاني: أن الضمير يرجع إلى الإيتاء، كأنه قيل يعطي ويحب الإعطاء رغبة في ثواب الله.

القول الثالث: إن الضمير عائد على اسم الله تعالى يعني يعطون المال على حب الله أي على طلب مرضاته.

ثم إن العلماء اختلفوا في المراد من هذا الإيتاء قال قوم إنها الزكاة وهذا ضعيف وذلك لأنه تعالى عطف الزكاة عليه بقوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ ومن حق المعطوف والمعطوف عليه أن يتغايرا فثبت أن المراد به غير الزكاة ثم لا يخلوا أن يكون المراد به إما التطوعات أو الواجبات لا جائز أن يكون المراد به التطوعات لأنه تعالى قال في آخر الآية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقَفَ التقوى عليه ولو كان ذلك ندباً لما وقَفَ التقوى عليه، فثبت أن هذا الإيتاء وإن كان غير الزكاة إلا أنه من الواجبات.

ثم فيه قولان **(الأول)** أنه عبارة عن دفع الحاجات الضرورية مثل إطعام المضطر ومما يدل على تحقيق هذا الجواب النص والمعقول (أما النص) فقوله عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن بالله واليوم الأخر من بات شبعاناً وجاره طاوٍ إلى جنبه)، وروي عن فاطمة بنت قيس أن في المال حقاً سوى الزكاة ثم تلت ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ وحكي عن الشعبي أنه سئل عمن له مال فأدى زكاته فهل عليه شيء سواه فقال نعم يصل القرابة ويعطي السائل ثم تلى هذه الآية، وأما (العقل) فإنه لا خلاف أنه انتهت الحاجة إلى الضرورة وإن لم تكن الزكاة واجبة ولو امتنعوا من الإعطاء جاز الأخذ منهم قهراً، فهذا يدل على أن هذا الإيتاء واجب، واحتج من طعن في هذا القول بما روي عن علي ﷺ أنه قال: إن الزكاة نسخت كل حق، والجواب من وجوه الأول أنه معارض بما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: في المال حقوق سوى الزكاة.

وقول الرسول ﷺ أولى من قول علي.

الثاني: أجمعت الأمة على أنه إذا طلب المضطر فإنه يجب أن يُدفع إليه ما يَدفع الضرورة وإن كان قد أدى الزكاة بالكامل.

الثالث: المراد أن الزكاة نسخت الحقوق المقدرة، أما الذي لا يكون مقدراً فأنه غير منسوخ بدليل أنه يلزم التصدق عند الضرورة، ويلزم النفقة على الأقارب وعلى المملوك وذلك غير مقدر.

فإن قيل هب أنه صَحّ هذا التأويل لكن ما الحكمة في هذا الترتيب؟ قلنا فيه وجوه، أحدها: أنه تعالى قدم الأول فالأول لأن الفقير إذا كان قريباً فهو أولى بالصدقة من غيره من حيث أنه يكون ذلك جامعاً بين الصلة

والصدقة لأن القرابة أوكد الوجوه في صرف المال إليها ولذلك يستحق به الإرث ويحجز بسببه على المال في الوصية حتى لا يتمكن من الوصية إلا في الثلث، وكذلك كانت الوصية للأقارب من الواجبات على ما قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...﴾ إلخ.

وإن كانت تلك الوصية منسوخة إلا عند بعضهم فلهذه الوجوه قدم ذا القربى ثم أتبعه تعالى باليتامى لأن الصغير الفقير الذي لا والد له ولا كاسب فهو منقطع الحيلة من كل الوجوه، ثم أتبعهم تعالى بذكر المساكين لأن الحاجة قد تشتد بهم ثم ذكر ابن السبيل إذ قد تشتد حاجته عند اشتداد رغبته إلى أهله ثم السائلين وفي الرقاب لأن حاجتهما دون حاجة من تقدم ذكره.

ثانيها: أن معرفة المرء بشدة حاجة هذه الفرق تقوى وتضعف فرتب الله ذِكر هذه الفرق على هذا الوجه لأن علمه بشدة حاجة من يقرب إليه أقرب ثم بحاجة الأيتام ثم بحاجة المساكين على هذا النسق.

ثالثها: أن ذا القربى مسكين وله صفة زائدة تخصه لأن شدة الحاجة فيه تغمه وتؤذي قلبه ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضر عن الغير، فذلك بدأ الله تعالى بذي القربى ثم باليتامى وأخَّرَ المساكين لأن الغم الحاصل بسبب عجز الصغار عن الطعام والشراب أشد من الغم الحاصل بسبب عجز الكبار عن تحصيلهما فأما ابن السبيل فقد يكون غنياً وقد تشتد حاجته في الوقت والسائل قد يكون غنياً ويظهر شدة الحاجة وأخَّر المكاتب لأن إزالة البر ليست في محل الحاجة الشديدة.

(المسألة الثانية)، أما ذوي القربى فمن الناس من حمل ذلك على المذكور في آية النفل والغنيمة، والأكثرون من المفسرين على ذوي القربى للمعطين وهو الأصح لأنهم به أخص ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى﴾، واعلم أن ذوي القربى هم اللذين يقربون منه بولادة الأبوين أو بولادة الجدين فلا وجه لقصر ذلك على ذوي الرحم المحرم على ما حكى عن قومٍ لأن المحرمية حُكمٌ شرعي أما القرابة فهي لفظةٌ لغويةٌ موضوعةٌ للقرابةً في النسب وإن كان من يختص بذلك يتفاضل ويتفاوت في القرب والبعد.

أما اليتامى ففي الناس من حمله على ذوي اليتامى قال لأنه لا يحسن من المتصدق أن يدفع المال إلى اليتيم الذي لا يميز ولا يعرف وجوه منافعه فإنه متى فعل ذلك يكون مخطئاً بل إذا كان اليتيم مراهقاً عارفاً بحوائجه وتكون الصدقة من باب ما يؤكل ويلبس ولا يخفى على اليتيم وجه الانتفاع به جاز وفعلها إليه، هذا كله على قول من قال اليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر، وعند أصحابنا هذا الاسم يقع على الصغير وعلى البالغ والحجة فيه قوله تعالى ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ ومعلومٌ أنهم لا يؤتون المال إلا إذا بلغوا.

وكان رسول الله ﷺ يُسمى يتيم أبو طالب بعد بلوغه فعلى هذا إن كان اليتيم بالغاً دفع المال إليه وإلا فيندفع إلى وليه.

والسائلين هم أهل الحاجة ثم هم ضربان منهم من يكف عن السؤال وهو المراد هنا ومنهم من يسأل وينبسط وهو المراد بقوله ﴿ وَالسَّائِلِينَ﴾ وإنما فرق تعالى بينهم من حيث يظهر على المساكين المسكنة مما يظهر

من حاله وليس كذلك السائل لأنه بمسألته يعرف فقره وحاجته وأما ابن السبيل فروي عن مجاهد أنه المسافر وعن قتادة أنه الضيف لأنه إنما فصل إليه من السبيل والأول أشبه لأن السبيل اسم للطريق وجعل المسافر ابناً له للزومه إياه كما يقال نظير الماء ابن الماء ويقال للرجل الذي أتت عليه السنون ابن الأيام وللشجعان بنوا الحرب أما قوله (﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ فعنى به الطالبين، ومن جعل الآية في غير الزكاة أدخل في هذه الآية المسلم والكافر، روى الحسن ابن علي رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: (للسائل حق ولو جاء على فرس) وقال تعالى ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ففيه مسألتان:

(المسألة الأولى): الرقاب جمع رقبة وهي مؤخرُ أصل العنق واشتقاقها من المراقبة وذلك أن مكانها من البدن مكان الرقيب المشرف على القوم ولهذا المعنى يقال أعتق الله رقبته ولا يقال أعتق الله عنقه لأنه لما سميت رقبة كأنها تراقب العذاب ومن هذا يقال للتي لا يعيش ولدها رقوب لأجل مراعاتها موت ولدها.

(الثانية): معنى الآية ويؤتي المال في عتق الرقاب، قال القفال واختلف الناس في الرقاب المذكورين في آية الصدقات فقال قائلون: إنه يدخل في من يشتريه فيعتقه ومن يكون مكاتباً فيعتقه على أداء كتابته فهؤلاء أجازوا شراء الرقاب من الزكاة المفروضة ومن الناس من حمل الآية على فداء الأسارى ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ قيل المراد ما أخذه الله من العهود على عباده بقولهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ وعلى ألسنة رسله إليهم بالقيام بحدوده والعمل

بطاعته فقد قبل العباد ذلك من حيث أمنوا بالأنبياء والكتب، وقد أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم نقضوا العهود والمواثيق وأمرهم بالوفاء بها فقال ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

(القول الثاني): أنه يحمل ذلك على الأمور التي يلتزمها المكلف ابتداءً من عند نفسه، واعلم أن هذا العهد إما أن يكون بين العبد وبين الله أو بينه وبين رسول الله ﷺ أو بينه وبين سائر الناس أما الذي بينه وبين الله فهو ما يلزم بالنذور والإيمان، وأما الذي بينه وبين رسول الله ﷺ فهو الذي عاهد الرسول عليه عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وأما الذي بينه وبين الناس فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزم من عقود المعاوضات من التسليم والتسلم وكذا الشرائط التي يلزمها في السَلَم والرهن وقد يكون ذلك من المندوبات مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال، والإخلاص في المناصرة فقوله تعالى ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ يتناول كل هذه الأقسام فلا معنى لقصر الآية على بعض هذه الأقسام دون البعض، وهذا الذي قلناه هو الذي عبر عنه المفسرون فقالوا: هم اللذين إذا وعدوا أنجزوا وإذا حلفوا ونذورا وفوا وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتمنوا أدوا.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ قال ابن عباس: البأساء الفقر وهو اسمٌ من البؤس، والضراء ما يريد به المرض، وحين البأس قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد القتال في سبيل الله والجهاد، ومعنى البأس في اللغة الشدة، يقال لا بأس عليك في هذا أي لا شدة ولا عذاب، وأمر بئيس

أي شديد ثم يُسمى الحرب بأساً لما فيها من الشدة، والعذاب يُسمى بأساً قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ فلما أحسوا بأسنا ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي هل هذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، وذكر الواحدي في آخر هذه الآية مسألة وهي أنه قال هذه الواوات التي في الأوصاف في هذه الآية للجمع فمن شرائط البر وتمام شرط البارّ أن تجتمع فيه هذه الأوصاف ومن قام به واحد منها لم يستحق الوصف بالبِر فلا ينبغي أن يظن الإنسان أن الموافي بعهده من جملة من قام بالبر وكذا الصابرين في البأساء بل لا يكون قائماً إلا عند استجماع هذه الخصال.

ولذا قال بعضهم هذه الصفة خاصة بالأنبياء عليهم السلام لأن غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف كلها وقال آخرون هذه عامة في جميع المؤمنون.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حسين معوض

من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (61) من سورة يونس

التفسير:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

==========

الآية رقم (61) من سورة يونس:

قبل هذه الآية الكريمة قول الله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما يُعطي أن الله الحكم العدل اللطيف الخبير أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ودأبُ الناس فيما ذكرت الآيات بعد ذلك السؤال عن وقوع الساعة متى يكون؟ ثم كيف يستعجلون الساعة وهي آتية لا محاله؟ وهي إذا وقعت فلا يكذب بوقوعها أحد لأن الكل يرى ويشاهد وقوعها عياناً أما في هذه الحياة الدنيا فهم في شك

من وقوع الساعة ويؤكد القرآن الكريم لهم وقوعها في أسلوب رفيع بديع ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ كما في الآية من هذه السورة ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وقد طال كلام الكفار في هذا وغيره والله عز وجل ذكر فساد مذاهب الكفار وأجاب عن شبهاتهم، كما ذكر حال النبي ﷺ بتحمل أذاهم وبالرفق معهم ثم بعد ذلك كله وجه الله إليه الخطاب فقال ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ليحصل تمام السلوى والسرور للمطيعين وتمام الخوف والفزع للمذنبين وهو سبحانه عالم بعمل كل واحد، وبما في قلبه من الدواعي والصوارف، فإن الإنسان ربما أظهر من نفسه نُسكاً وطاعة وزهداً وتقوى، ويكون باطنه مملوءاً من الخبث وربما كان على العكس من ذلك مظهره ليس بشيء ولكن باطنه عامر وقلبه نقي تقي ونفسه عالية ومن ثم فلا ينبغي لغافل أن يحكم على إنسان بمظهره ولكن بمخبره وما وراء ذلك من أسرار لا يعلمها إلا الذي يطلع على السرائر ويعلم ما في الضمائر.

فإذا كان الحق سبحانه عالماً بما في البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للطائعين، ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين.

وتوجه الخطاب في الآية إلى رسول الله ﷺ على سبيل التخصيص في آمرين أولهما ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وثانيهما ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين في قوله ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ والمعنى كما قال ابن عباس رضي الله عنهما:

وما تكون يا مُحمد في شأن يريد أي من أعمال البِر: وقال الحسن: في شأن من شئون الدنيا وحوائجكَ فيها.

﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يعيش مع القرآن في كل شئونه وفي جميع أحواله، وقيل الضمير عائد على القرآن والتقدير وما تتلوا من القرآن من قرآن، كما قيل الضمير لله عز وجل وتقديره وما تتلوا من قرآن من الله نازلً من عند الله.

وقال بعض المفسرين لا تخصيص في الخطاب في قوله سبحانه ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وما بعده بل ذلك على ما جرت عليه العادة الخطاب عند العرب حيث يوجه الخطاب إلى رئيس القوم أو رئيس القبيلة ويدخل فيه الجميع تبعاً والدليل عليه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ لأن الله شاهد على كل شيء، وعالم بكل شيء علماً أبدياً تفصيليا فالله يعلم السر وأخفى،﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وأكد الحق ذلك المعنى في الآية التي نحن بصددها حيث

قال "﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ فسبحان الله لا يعلم ذاته إلا هو وجدير بكل عاقل من الناس أن يراقب ربه وقد جاء في حديث جبريل عليه السلام وقد جاء إلى رسول الله ﷺ ليُعلم الناس دينهم أن سأل عن الإحسان فقال له النبي ﷺ: (الإحسان إن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وتقديم الأرض على السماء هنا شهادة على أحوال أهل الأرض وأعمالهم وإنما قدمت على الأرض في سورة سبأ لأن ذلك هو الترتيب الطبيعي.

ويعزب أي يغيب ويبعد قُرئ بالضم والكسر كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. 69 القصص.

وبالله التوفيق ومنه العون والتأييد

حسين معوض

من علماء الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله وبارك وعظم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين)

تفسير المعوذات:

أولاً سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

****

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي الواحد الوتر الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد ولا شريك له.

لهذه السورة أسماء كثير، تلك الكثرة تدل على مزيد فضل والعرف يشهد لذلك، فمن أسمائها أنها سورة التفريد، وسورة التجريد، وسورة التوحيد، ورابعها سورة الإخلاص، لأنه لم يذكر في تلك السورة إلا صفاته السلبية التي هي صفات الجلال ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار محققاً وخامسها النجاة لأنها تنجيك من التشبيه والكفر في الدنيا ومن النار في الآخرة، وسورة الولاية لأن من قرأها كان من أولياء الله، ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه الله برحماته ومنحه نعمه، سابعاً سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم: يا أخا بني سليم استوصِ بنسبة الله خيرا ولقد عرف الاهتمام

بالأنساب عند العرب، ثامناً سورة المعرفة، لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجل صلى فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن هذه عبد عرف ربه، تاسعاً سورة الجمال قال عليه الصلاة والسلام: إن الله جميل يحب الجمال فسألوه عن ذلك فقال: (أحد صمد لم يلد ولم يولد)، عاشراً، سورة المقشقشة يقال أن المريض تقشقش مما به أي عوفي فمن عرف هذه السورة حصل له البُرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال الله ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ، الحادي عشر المعوذة روي أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوَّذه بها وبالتاليتين بعدها ثم قال ﷺ: تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها، الثاني عشر سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى، والثالث عشر سورة الأساس قال عليه الصلاة والسلام: أُسِّست السماوات السبع، والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السماوات والأرض بدليل قوله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء وقد قال سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الرابع عشر سورة المبالغة روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به: أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران. الخامس عشر سورة المحضر لأن

الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرأت، السادس عشر المُنفرة لأن الشيطان يَنفُر عند قراءتها، السابع عشر البراءة لأنه رويَّ أنه عليه السلام رأى رجل يقرأ هذه السورة فقال: أما هذا فقد برئ من الشرك وقال عليه السلام: من قرأ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة في صلاة أو في غيرها كُتبت له براءة من النار. الثامن عشر سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد. التاسع عشر سورة النور قال تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والسورة تنور قلبك، وقال عليه السلام: أن لكل شيء نوراً ونور القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضاءه وهو الحدقة فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان، العشرون سورة الأمان قال عليه الصلاة والسلام: إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمِن مِن عذابي.

ثم إن فضائل هذه السورة ما أكثرها فقد اشتهرت الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة الله ذاتاً وصفاتاً، ومعرفة أفعاله وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات فكانت معادلة لثلث القرآن وأما سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ فهي معادلة لربع القرآن لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك، وكل واحد منهما إما أن يكون في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ لبيان من ينبغي تركه من أفعال القلوب فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ومن هذا السبب اشتركت السورتان في بعض الأسماء فهما المقشقشتان والمبرئتان من حيث أن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب من سائر المعبودين سوى الله، وإذا كان لليلة القدر الفضل فأنها صدف، والدر

هو قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ اسم هو علم على الذات الأقدس جل وعلا ولم يسمى به أحد وإنما يضاف إليه فيقال عبد الله وهو اسم الله الأعظم مع بعض أدعية وردت نحو اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت وأن تعطيني سؤالي.....الخ، وقال سعيد ابن جبير أنه الكامل في جميع صفاته وفي جميع أفعاله، ﴿الصَّمَدُ﴾ قال ابن عباس في معناه هو السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وعن أبي هريرة ﷺ هو المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد، وعن ابن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقال معمر هو الدائم وعن طائفة، منهم أبي أبن كعب والربيع ابن أنس أنه الذي لم يلد ولم يولد كأنهم جعلوا ما بعده تفسيراً له.

قال صاحب روح المعاني والذي أختاره تفسيره بالسيد الذي يصمد إليه الخلق من صمد بمعنى قصد ونعم، فأن كل كائن في هذه الوجود علويه وسفليه يقصد الله في كل أمراً هو له وهذا موسى كليم الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام، طلب من الله الأمر الحقير لقمة يسد بها جوعته حين قال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ كما طلب أيضاً الأمر العظيم حين قال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير للإشعار بأن من لم يتصف بالصمدية لا يستحق الأُلوهية، وقال الحسين ابن الفضل البجلي: الصمد الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد

لقضائه كما قيل أيضاً الصمد هو الغني على ما قال ﴿هُوَالغَنِيُّالحَمِيدُ﴾ أو الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله تعالى ﴿وَهُوَالقَاهِرُفَوْقَعِبَادِهِ﴾ ولا يخاف مَن فوقَه ولا يرجوا مَن دونَه، تُرفع الحوائج إليه، وقال قتاده الباقي بعد فناء خلقه ﴿كُلُّمَنْعَلَيْهَافَانٍ﴾.

﴿لَمْيَلِدْ﴾ لأن الولادة تقتضي انفصال مادة منه سبحانه وذلك يقتضي التركيب المنافي للصمدية والأحدية أو لأن الولد من جنس أبيه، ولا يجانسه تعالى أحد لأنه تعالى ﴿لَيْسَكَمِثْلِهِشَيْءٌ﴾ والاقتصار على الماضي دون أن يقال لن يلد لوروده رداً على من قال إن الملائكة بنات الله سبحانه أو المسيح ابن الله، تعالى الله، عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَلَمْيُولَدْ﴾ نفي للمولودية عنه لاقتضاءها المادة فيلزم التركيب المنافي للغنى المطلق، والأحدية الحقيقة، وقدم نفي الولادة لأنه الأهم لأن طائفة من الكفار توهموا خلافه. ﴿وَلَمْيَكُنْلَهُكُفُوًاأَحَدٌ﴾ أي لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله من صاحبه وغيرها ومن قوله ﴿لَمْيَلِدْ﴾ إلى ﴿أَحَدٌ﴾ بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه لا بأن يكون سبحانه مُتولِداً ولا بأن يكون مُتولَداً عنه ولا بأن يكون موازي في الوجود وبهذا يحصل تمام المعرفة به سبحانه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

تفسير سورة الفلق:-

مكية وعند جماعة أنها مدنية وهو الصحيح لأن سبب نزولها سحر اليهود لرسول الله ﷺ وهو إنما سُحِر بالمدينة، وآياتها خمس بلا خلاف ولما شرح أمر الإلوهية في السورة قبلها جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وكلماتها ثمان عشر كلمة، وحروفها تسع وسبعون حرفاً. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً كما في الدلائل للبيهقي، وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أُنزِلت عليَّ الليلة آيات لم أرى مثلهن قط، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وأخرج البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كتفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وبما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات، وجاء في الحديث أن من قرأهما مع سورة

الإخلاص ثلاثاً حين أمسى وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء، وفي فضلهما أخبار كثيرة، وقد وقع الإجماع على قراءتهما، ولعل ابن مسعود رجع عن قوله أنها للتعوذ فقط حتى أنه لم يكتبهما في مصحفه.

ومجموع القرآن منقول بالتواتر المفيد باليقين وما وقع من خلاف مروي بالآحاد وهو لا يقف بين ما روي بالتواتر.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ ألتجئ إلى الله وأعتصم به وأتحرز من كل شيء يكرهه الله.

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وهو يعم جميع الموجودات الممكنة وتفسيره بالمعنى العام أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولفظة ﴿الْفَلَقِ﴾ يساوي الخلق ويكون المعني أعوذ برب الخلق من شرهم وإن كان البعض فسر الفلق بالصبح ولفظ الرب هنا أوقع من سائر الأسماء التي يجوز إضافتها إلى الفلق وفيه سرٌ لطيف وذلك أن المربوب لا يستغني في شيء من حالاته عن الرب وأيضاً فإن نفحات الألطاف دائمة وإنما المخلوق هو الذي ينزوي عن ربه بمخالفة أو بغفلة، وقيل الفلق سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون وأن جهنم لتعوذ بالله منه، وعن أبي مردويه قال صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقال يا ابن عنبسه: أتدري ما الفلق، فقلت: الله ورسوله أعلم، قال بئر في جهنم فإذا سعرت البئر فمنها تسعر جهنم وإن جهنم لا تتأذى منه، وقيل أن الفلق بيتٌ في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر ما خلق من الثقلين وغيرهما كائناً ما كان والظاهر عموم الشر للمضار البدنية وغيرها.

وقال بعض الأفاضل: هو عامة لكل شر في الدنيا والآخرة وشر الأنس والجن والشياطين وشر السباع والهوام وشر الذنوب والهوى وشر النفس وشر العمل.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبل لزيادة مساس الحاجة إليه والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، وأصل الغسق الابتلاء، يقال غسقت العين إذا امتلئت دمعاً وقيل هو السيلان، وغسق الليل انصباب ظلامه، وغسق العين سيلان دمعها، وغسق الليل انصباب ظلامه على الاستعارة وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له لحدوثه فيه على حد نهاره صائم وتنكيره لعموم شمول الشر لجميع أفراده ولكل أجزاءه ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا دخل ظلامه في كل شيء وأصل الوقب النقرة والحفرة ثم استعمل في الدخول ومنه قوله:

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقهم نار السموم فأخمدوا

وتفسير الغاسق بالليل والوقوب بدخول ظلامه أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ومجاهد وابن أبي حاتم عن الضحاك وروي أيضاً عن الحسن أيضاً وإليه ذهب الزجاج إلا أنه جعل الغاسق بمعنى البارد وقال أطلق على الليل لأنه ابرد من النهار وقال محمد بن كعب هو النهار ووقب بمعنى دخل في الليل وقيل القمر إذا امتلئ نوراً على أن الغسق الامتلاء ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده وقيل التعبير عنه بالغاسق لسرعة سيره وقطعه البروج عن أن الغسق مستعار من السيلان واستدل على تفسيره بالقمر بما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهما عن عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر

لما طلع فقال: يا عائشة استعيذي بالله تعالى من شر هذا فإن هذا الغاسق إذا وقب، ومن سلم صحة هذا لا ينبغي له العدول إلى تفسيراً آخر.

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي ومن شر النفوس السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها فالنفاثات صفة للنفوس، والنفث النفخ مع ريق كما قال الزمخشري وقال صاحب اللوامح: هو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه فإن كان بريق فهو تفل، والأول أصح، وقرأ أبو الربيع والحسن النفاثات بغير ألف كالخدرات وتعريفها إما للعهد أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن، وتمخضهن فيه، وتخصيصه بالذكر لما روى البخاري ومسلم وابن ماجة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ حتى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا الله ثم دعا ثم دعا ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله تعالى أفتاني فيما استفتيته فيه قلت وما ذاك يا رسول الله فقال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي ما وجع الرجل قال مطبوب قال من طَبهُ قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذي أروان قالت فأتاها رسول الله ﷺ في إناس من أصحابه ثم قال: يا عائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قالت فما فعلت يا رسول الله أفلا أحرقته قال: لا. أما أنا فقد عافاني الله تعالى، وكرهت أن أثير على الناس شراً فأمرت بها فدفنت، وهذان الملكان على ما تدل عليه رواية ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس هما جبريل وميكائيل عليهما السلام وفي رواية أن الذي تولى السحر لبيد ابن الأعصم وبناته فمرض

النبي ﷺ فنزل جبريل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر، وبمن سحره فأرسل ﷺ علياً كرم الله وجهه والزبير وعماراً فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء ثم رفعوا رعوانة البئر فأخرجوا أسنان المشط، ومعها وترٌ قد عقد فيه إحدى عشرعقدة مغرزة بالأبر فجاؤا بها النبي ﷺ فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه الصلاة والسلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام ﷺ كأنما أنشط من عقال.

قال القاضي عياض قد جاءت روايات حديث عائشة مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده الشريف ﷺ وظواهر جوارحه لا على عقله عليه الصلاة والسلام وقلبه واعتقاده.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادئ الإضرار قولا وفعلاً، والحسد زوال نعمة الغير والفرق بين الحاسد والعائن أن العائن يؤثر بعينه في حضوره والحاسد يؤثر في غيبته وفي حضور، ثم إن الحاسد إنما تأكل نار الحسد قلبه أولاً كما قال الإمام علي كرم الله وجه.

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

والحاسد ممقوت عند الله تعالى وعند عباده آتٍ بابا من الكبائر ولما كان الحسد طبيعة في البشر لذلك فمن جاهد نفسه وعامل أخاه بما يحبه الله تعالى فلا إثم عليه بل يثاب في مجاهدته لنفسه ويطلق الحسد على الغبطة وهي تمني أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة من غير تمني

Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

زوالها وهذا مما لا بأس به ومن ذلك ما صح من قوله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس).

مَوْقِع الطريقة الدُومِيَّة الخَلْوَتِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

تفسير سورة الناس:-

وتسمى مع ما قبلها بالمعوذتين بكسر الواو والفتح خطأ وكذا بالمقشقشتين وهي كسابقتها مكية أو مدنية وهذا أرجح وهي ست آيات، واختار البعض أنها سبع آيات وكلماتها سبع عشر كلمة، وحروفها تسعون حرفاً.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أُمِر النبي ﷺ بأن يتعوذ بالله وهو بالتالي أمر لكل فرد من أفراد أمته إذ قد جرى العرف أن الأمر إذا وجه إلى رئيس قبيلة أو قائد أمة فإنما الأمر لكل فرد ومنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ .

ومعناه الالتجاء إلى الله عز وجل وقد ورد (من عاذ بالله فقد عاذ) وإذا كان البعض لا يجاب مع استعاذته فإنما ذلك لضعفه وعدم إخلاصه والله عز وجل ينظر إلى القلوب ولذا ورد (من سأل فليعزم المسألة فإن الله لا مكر له).

﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي مالك أمرهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم وأمال (الناسَ) هنا أبو عمرو والدوري عن الكسائي وكذا في كل موضع وقع فيه مجرد ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ عطف بيان على ما اختاره الزمخشري جئ به لبيان أن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بطريق الملك الكامل والتصرف الكلي والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فإنه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمور سياستهم والتولي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصرى قصارى أمر الملوك، بل هو بطريق العبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً، وجوزت البدلية أيضاً، وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالم في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وإلوهيته للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة الجديرة بالإعاذة، فإن توسل العائذ بربه وانتسابه إليه بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من أفراده من دواعي مزيد الرحمة والرأفة وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة، ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم ففي التخصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من هلكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ واقتصر بعض الأجلة في بيان وجه التخصيص على كون

الاستعاذة هنا من شر ما يخص النفوس البشرية وهي الوسوسة كما قال تعالى.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ وفي إضافة الرب إلى الناس في آخر سورة من كتابه تذكير لأول أمر عرفوه في عالم الذر. وأخذ عليهم العهد بالإقرار به فيما بعد كما أشار إليه قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ فيكون ذلك تحريض على الاستعاذة من شر الوسواس لئلا يتدنس أمر ذلك العهد، وفيه أيضاً رمزٌ إلى الوعد الكريم بالإعاذة وذكر القاضي أن في النظم الجليل إشعاراً بمراتب الناظر المتوجه لمعرفة خالقه فأنه يعلم أولاً بما يروي عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقق أنه سبحانه غني عن الكل وذات كل شيء قوله ومصارف أمره منه فهو الملك الحق ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير. فإن عادة من ألم به هم أن يرفع أمره لسيده ومربيه كوالديه فإن لم يقدر على إزالته رفعه لملك وسلطان فإن لم يُزِل ظلامته شكاه إلى ملك الملوك ومن إليه المشتكي والمفزع.

وقد قيل إن الاستعاذة ليست من الوسوسة فقط بل من جميع شروره ولذا قيل من شر الوسواس ولم يقل من شر وسوسة الوسواس وعليه يكون القول بأن شره يلحق البدن كما يلحق النفس وعد من شره أنه يعقد عقداً كما جاء في صحيح البخاري رضي الله عنه، يعقد الشيطان على قافعة رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد... الخ

مراده بذلك منعه من اليقظة، وعند بعضهم من التخبط كما قال تعالى ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

﴿الْخَنَّاسِ﴾ صيغة مبالغة تنبئ عن أن ديدنه ذلك أو نسبتة أي الذي عادته أن يخنس، ويتأخر إذا ذكر الإنسان ربه عز وجل، أخرج الضياء في المختار والحاكم وصححه ابن المنذر وغيرهم عن ابن عباس قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا عقل فذكر الله تعالى خنس، فإذا غفل وسوس. وله على ما روي عن قتادة خرطوم كخرطوم الكلب ويقال رأسه كرأس الحية، وأخرج ابن شاهين عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ. يقول: إن للوسواس خطماً كخطم الطائر فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ذكر الله تعالى نكص وخنس. ولذلك سمى الوسواس الخناس ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ قيل: أريد قلوبهم مجازاً، وقال بعضهم أن الشيطان يدخل الصدر فيلقي منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ولا مانع عقلاً من دخوله في جوف الإنسان وقد ورد ما يفيده فوجب قبوله والإيمان به ومن ذلك: إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم. ومن الناس من حمله على التمثيل وقال في الآية أنها لا تقتضي الدخول الفعلي.

وقال ابن سينا: الوسواس القوة التي توقع الوسوسة وهي تلك التي تكون للنفس الحيوانية ثم أن حركتها تكون بالعكس إذ النفس مجبولة على حب الشهوات واللذات إلا لمن قومها وجاهدها ولأنها رجاعة إلى الوراء تبعاً لأهوائها تسمى خناساً ونحوه ما قيل أنه

القوة الوهمية فهي تساعد العقل في المقدمات فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنست وأخذت توسوسه وتشككه، قال الفخر الرازي: ولا يخفي أن تفسير كلام الله تعالى بأمثال ذلك من شر الوسواس الخناس.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان الذي يوسوس على أنه ضربان جني وإنسي كما قال تعالى ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ قال الفراء وجماعة هو بيان للناس بناء على أنه يطلق على الجن أيضاً فيقال كما نقل عن الكلبي ناس من الجن كما قال نفر ورجال، وقال الفخر الرازي: وفيه أن المعروف عند الناس خلافه مع في ذلك من شبه جعل قسم الشيء قسيماً له ومثله لا يناسب بلاغة القرآن.

وأقرب منه أن يراد بالناس الناس بالياء ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ثم ومن بالجنة والناس فإن كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بالنسيان، نسيان حق الله تعالى إلا من تداركه شوافع عصمته.

وتناوله واسع رحمته، جعلنا الله ممن نال من عصمته الحظ الأدنى وكال له مولاه من رحمته فأدنى.

ثم أنه قيل أن حروف هذه السورة غير المكرر اثنان وعشرون حرفاً، وكذا حروف الفاتحة وذلك بعدد السنين التي أنزل فيها القرآن وكون سني النزول اثنين وعشرين سنة قول لبعضهم والمشهور أنها ثلاث وعشرون.

Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

والحمـــد الله أولاً وآخـــراً ملهـــم الـــصواب وموفـــق أهـــل الهـــدى والرشاد جعلنا الله منهم بفضله ومَنّه إنه نعم المولى ونعم المجيب.

الفقير إلى ربه

حسين محمود معوض

من علماء الأزهر الشريف

رقم الإيداع بدار الكتب: 1987/2449

مَوْقِع الطريقة الدُومِيَّة الخَلْوَتِيَّة